الآية 34

التّكريم الإلهي لآدم بسجود الملائكة له

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

بعد أن بيّن الله تعالى أنّ القرآن الكريم كتابه الذي لا ريب فيه، وأقام الدليل على ذلك، كما وضّح صفات المؤمنين والكافرين والمنافقين، وقدّم البراهين على وحدانيّته تعالى وعظمته، كخالق، قادر، حكيم، عليم، مريد، خبير، رحيم، لطيف، وتحدّى الخلق أن يأتوا بمثل هذا الكتاب أو حتّى بسورة واحدة من مثله؛ أوضح تعالى في هذه الآيات أسباب خلقه لبني آدم، مبيّنًا لماذا أنزلهم على الأرض؟ وما هي مهمتهم فيها؟ من هم أعداؤهم؟ وماذا يريدون منهم؟ في ترتيب عجيب يعبّر عن كمال الحكمة الإلهيّة. ثمّ عرض سبحانه نوعًا آخر من تكريمه لآدم أبي البشر، حيث أمر الملائكة بالسجود له، سجود تحيّة وتكريم -لا سجود عبادة-، وخصّه تعالى بالخلافة في الأرض، كما علّمه أسماء الأشياء والأجناس واللغات، ممّا يدلّ على تكريم النوع الإنسانيّ من خلال تكريم أصله.

المعنى العام

بعد أن تبيّنت فضيلة آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، أمرهم بالسّجود، أنِ اسْجُدُوا لآدَمَ سجود انحناء، ﴿فَسَجَدُوا﴾ كلّهم، لأنّهم شهدوا الجمع ولم يشهدوا الفرق، فرأوا آدم قِبلَةً أو نورًا من أنوار عظمته ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ امتنع؛ حيث نظر الفرق ولم يُسَلِّم وَثِيقٌ بحكمة الواحد القهّار، فاستكبر ﴿وكانَ﴾ من جملة ﴿الْكَافِرِينَ﴾. وكفره إنّما كانَ بتبرير اعتراضه على الله وتسفيه حكمه لا بامتناعه؛ إذ مجرّد المعصية في أكثر الحالات لا تكفّر.

لطائف الإشارات للسّلوك والتّزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيات:

١. إنّ إبليس جِنّيّ قطعًا كما قال الحسن البصريّ، ولا صحّة لما سوى ذلك، وهو واحد من الجنّ وليس أباهم؛ أمّا أبو الجنّ فيُقال إنّ اسمه الجانّ لقوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾[1].

٢. امتنّ الله تعالى على آدم وذرّيته بكرامة عظيمة، حين أمر الملائكة بالسّجود لآدم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجَّ - وفي رواية تحاجَّ - آدَمُ وَمُوسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَنْ رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ. قالَ مُوسَىٰ:

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٧.

أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ؟! قَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ، وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا؟! فَبِكَمْ وَجَدت اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟

قَالَ مُوسَىٰ: بِأَرْبَعِينَ عَامًا. قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[1]؟ قَالَ: نعم، قَالَ: فَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟. قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى »[2].

٣. إنّ إبليس كان من الجنّ وقد ترك فعل الكبائر الظّاهرة وتفرّغ للعبادة - الصّلاة والصيام - أكثر من مائتي سنة، وكثير من أقرانه في الفسق والعصيان. فلمّا رأته الملائكة هكذا قالت يا ربّ هذا ينبغي أن يكون بين صفوف الملائكة لا بين صفوف الجنّ. ذلك أنّ الملائكة تعلم الظّاهر ولا اطّلاع لها على معاصي القلوب وعيوبها، والله تعالى يعلم أنّ هذه العبادات ما زادت إبليس إلا عُجبًا بنفسه، واستكبارًا على بني جنسه، فاستجاب الله لطلب الملائكة، ورفع إبليس ليعبد الله تعالى بين صفوف الملائكة، ولُقّب بطاووس الملائكة وهو لقبٌ يحتمل الذّمّ والمدح كما لا يخفى.

٤. إنّ الله تعالى لمّا أمر الملائكة بالسّجود لآدم، دخل إبليس في خطابهم لأنّه وإن لم يكن من عنصرهم، إلا أنّه كان قد تشبّه بهم وتوسّم بأفعالهم، فلهذا دخل في الخطاب معهم وذُمَّ في مخالفة الأمر، وسَنَبْسُطَ المسألةَ إن شاء الله تعالى عند قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[3].

٥. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾[4] قال قتادة: فكانت الطّاعة لله، والسّجدة تشريفًا لآدم عليه السلام، فالله تعالى أكرم آدم عليه السلام أن أَسْجَدَ له ملائكته، وقال بعضهم: كان هذا سجود تحيّة وسلام وإكرام، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾[5]، وقد كان هذا مشروعًا في الأمم الماضية، ولكنّه نُسخ في ملّتنا.

٦. السّجود لآدم لم يكن عبادة لِعَيْنِهِ، ولكن لموافقة أمره سبحانه، فكأنّ سجودَهم لآدم عبادةٌ لله؛ لأنّه كان بأمره، وتعظيمًا لآدم؛ لأنّه أمرهم به تشريفًا لشأنه، فكما أنّنا نسجدُ لله تعالى متوجّهين إلى الكعبة فإنّ الله تعالى أمر الملائكة بالسّجود لله تعالى متوجّهين إلى آدم.

٧. وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[6] قال: حسَدَ عدوّ الله إبليس آدمَ عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناريّ وهذا طيني.

٨. كان بدء الذّنوب بالكِبْر والعجب والحسد وتبرير المعصية، ولمّا استكبر عدوّ الله أن يسجد لآدم عليه السلام اقتضى طردُه وإبعادُه، لِمَا ثبت في الصّحيح قوله ﷺ: « لا يدخُلُ الجنّةَ مَن كانَ في قلبِهِ مِثقالُ ذرّةٍ مِن كِبْرٍ »[7] وقد كان في قلب إبليس من الكبر والكفر والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرّحمة وحضرة القدس.

٩. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: وصار من الكافرين بسبب امتناعه كما قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[8]. وقال ابن فورك: تقديره؛ وقد كان في علم الله من الكافرين، ورجّحه القرطبيّ، وذكر ههنا مسألة فقال: قال علماؤنا، من أظهر

(١) سورة طه، الآية: ١٢١.
(٢) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، كتاب: القدر، باب: حجاج آدم وموسى – عليهما السّلام-، حديث رقم: ٢٦٥٢.
(٣) سورة الكهف، الآية:٥٠.
(٤) سورة البقرة، الآية:٣٤.
(٥) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٣٤.
(٧) رواه مسلم في صحيحه، عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، حديث رقم: ٩١.
(٨) سورة هود، الآية: ٤٣.

الله على يديه ممّن ليس بنبيّ كرامات وخوارق العادات، فليس ذلك دالًّا على ولايته، وقد قال الشّافعيّ- رحمه الله-: إذا رأيتم الرّجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغترّوا به حتّى تعرِضوا أمْرَهُ على الكتاب والسّنّة.

تتجلّى العبرة من هذه القصّة بأنّ آدم وذريّته لا يليق بهم عصيان أوامر الله، وإنّما يجب عليهم عبادته وحده، دون تلكّؤ ولا تقصير.

١٠. الملائكة والشّياطين أرواح لها اتّصال بالنّاس لا نعرف حقيقته، بل نؤمن بما ورد فيه، دون بحث عن الكيفيّة والحال والمآل.

السّجود نوعان:

النّوع الأوّل: سجود عبادة وتأليه وهو لله وحده.

والنّوع الثّاني: سجود تحيّة وتكريم من غير تأليه، كسجود الملائكة لآدم عليه السلام، وسجود يعقوب عليه السلام وأولاده ليوسف عليه السلام وكان هذا مباح في شرع من قبلنا فحرّمه الله تعالى في شريعة سيّدنا محمّد ﷺ. قال رسول الله ﷺ: ((لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِها))[1]

في الأمر والنّهي

- **التحذير من كبيرة الكِبْر**
- التحذير من آفتيّ الكبر والحسد فهما سبب إبلاس الشيطان إبليس، وامتناع اليهود عن قبول الإسلام.

الكِبْرُ كبيرة من الكبائر، وهو: شعورٌ خادِعٌ بالعَظَمَةِ والتّجبُّرِ والتّرفّع وعدمُ قبول الحقّ، ويكون بالاستعلاءِ على النّاس، والتّعالي عليهم مع احتقارِهم وازدرائهم والاستخفاف بِهِم. ومن الكِبر أيضًا ألّا يعترف الإنسان بخطئه، وهو من أسوأ المعاصي لأنّه قد يصرف الإنسان عن التّوبة ولو ظهرت أمامه الآيات الواضحات، قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[2]. وقال رسول الله ﷺ: ﴿ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ﴾ قالَ رَجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يَكونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قالَ: ﴿إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النّاسِ ﴾[3]. ومعنى بطر الحقّ: الاستنكاف عن قبوله وردّه والنّظر إليه بعين الاستصغار، وذلك للتّعالي والتّعاظم، ومعنى غمط النّاس: ازدراؤهم واحتقارهم.

- التّحذير من أنّ الشّيطان عدوّ تجب عداوته على الدّوام.

التّحذير من تبرير المعصية لأنّه يقود إلى الكفر.

في الأخلاق والآداب

السّلامة من الكِبَر:

هذا الخُلُق مُستَمَدٌّ مِن اسمِ الله تعالى **"المُتَكَبّر"**.

وَالتَّخلُّقُ بِهِ هو بأن تتذكّرَ دومًا أنَّ التَّكبّر لله تعالى وحدَهُ فهو المُتَفَرِّدُ بالكبرياء والعظمة ولا يَصحُّ لِغيرِهِ، فهو خالقُ

(١) رواه الترمذي في سننه، عن ابي هريرة، حديث رقم: ١١٥٩، كتاب: أبواب الرّضاع، باب: ما جاء في حق الزوج على المرآة.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.
(٣) رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن مسعود. كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، حديث رقم: ٩١.

كلِّ شيءٍ ومالكُ كلّ شيءٍ، ولهُ الكمالُ وحدَه. وأنت مخلوق لا تملك من أمرك شيئًا وصِفتُكَ النَّقصُ والحاجةُ لربّك. فعليك أن تتواضعَ لِكبريائه، وَتخضَعَ لِحُكمِهِ وَقضائِه، وتذكَّر دائمًا أنَّك مفتقرٌ إليه على الدَّوام في كلِّ شيء. وتتذكَّرُ دائمًا أنَّ كلَّ خيرٍ عِندَك مِن جمالٍ أو مالٍ أو جاهٍ أو عِلمٍ أو ذكاءٍ أو فهمٍ أو عِبادةٍ أو صلاحٍ أو هدايةٍ فهو منه تعالى وبإمداده، وقد يَسْلُبك الله عطاياه في أي لحظة.

كيف ينسِبُ الإنسانُ شيئًا إلى نفسِه وهو ليسَ له؟ أو كيف يدَّعي الفضلَ على الآخرين وهو ليسَ بأفضلَ مِنهم بل كل ما عِندَه هو من فضلِ الله تعالى وتوفيقِه؟ من له الجرأة أن يتكبّر على النّاس؟ وكيف لا تعظُم آفته، وقد قال رسول الله ﷺ: ﴿ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ﴾ [1]. فلا ترَ نفسك خيرًا من غيرِك بل تواضَع بين أبناءِ جنسِك. ومن تواضَعَ دون قدرِه رفَعَهُ الله فوق قَدْرِه، ومن رَفَعَ نفسه وَضَعَهُ الله ومن تكبّر قَسَمَهُ الله.

الكِبر هو شعورٌ خادعٌ بالاستعلاءِ على النّاس، مصحوبٌ باحتقارِهم والتّرفّع عليهم. وهو من الأمراض الدّفينة الّتي لا يشعُر بها صاحِبُها، فهو لا يرى إلّا نفسه. والنّفس إذا تكمّلت بالهوى تدّعي الرّبوبيّة كما ادّعى فرعون ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعلى﴾[2] وكلّ منّا له من " صنم الأنا " نصيب على قدر سلوكه ولو أُعطيت النّفس هواها لقالت: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعلى﴾ فعلينا أن نلجمها بلجام العقل والنّور ونستعين بالأذكار.

إذا سيطرت النّفس على الإنسان لا يستطيع أن يأخذ قرارات سليمة، فهو يعرف الحقّ ولا يقدم عليه كما فعل إبليس. فقد منعه الكبر أن يؤمن مع علمه أنّ الله حقّ. وكما فعل كفّار قريش، فهم عرفوا أنّ رسول الله ﷺ نبيّ مرسل، ولكن الكبر منعهم من الإيمان والإذعان، فالكبر داء وله آثار وخيمة ومدمّرة، من أبرزها: بطر الحقّ أي عدم قبوله، وغمط النّاس أي بخس النّاس مكانتهم وازدراؤهم وجِدالهُمْ بالباطل.

على الإنسان أن يمتحن نفسه ليرى إن كان متكبّرًا. فإذا وجد من أقرانه من يتكلّم بكلام في موضوع اختصاصه -دين، طبّ، أو علوم أخرى- وكان كلام هذا الأخير حقًّا أو أفضل من كلامه انتابه عندها قلق وانزعاج، فهذا يعني أنّه متكبّر. وقد يَنْزَعِجُ لأنّ نفسه لم تتحمّل أن يخرج الكلام الجميل والحقّ من أحد أقرانه وليس منه.

في السّلوك

الإشارة: إذا كَمُلَتْ تصفيةُ الرّوح وظهر شرفُها، خضع لها كلّ شيء، وتواضع لها كلّ شيء، وانقاد لأمرها مَن سبقت له العناية، وهبّت عليه ريح الهداية، لأنّها صارت آدمَ الأكبرَ، إلا من أبلسته المشيئة، وطردته القدرة، فاستكبر عن تحكيم جنسه على نفسه، وكان من الكافرين لوجود الخصوصيّة، فجزاؤه حرمان شهود طلعة الرّبوبيّة، وهبوطه إلى حضيض العموميّة[3]. لذلك قال تعالى: ﴿وجَعَلْنَا بعضَكُم لبَعضٍ فتنةً أَتَصْبِرُونَ وكانَ ربُّك بَصِيرًا﴾[4].

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن عبد اللّه بن مسعود ﷺ، كتاب: الإيمان. باب: تحريم الكبر وبيانه، حديث رقم: ٩١.
(٢) سورة النازعات، الآية: ٢٤.
(٣) ابن عجيبة.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢٠.

اللَّهُمَّ إنّا نعوذ بك من الكبر والغرور، ومن العُجب وحبّ الظهور.
اللَّهُمَّ طهّر قلوبنا من النّفاق. اللَّهُمَّ طهّرها من الحسد والبغضاء.

الآيات من 35 - 39

آدم وحوّاء في الجنّة وموقف الشّيطان منهما

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴿٣٩﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

تستمرّ الآيات في بيان أنواع التكريم الإلهيّ للإنسان، حيث يظهر التكريم في المقام الذي أعدّه الله له في الجنّة منذ بدء الخليقة. ولكن شاء الله بحكمته أن يقيم الإنسان في الأرض، ويكلّفه برسالة عظيمة، وهي التعلّق بأسماء الله الحسنى والتخلّق بها، وعمارة الأرض بهذه القيم، وإظهار مزيّة الإنسان في مجاهدته للشيطان ولأهوائه، مما يدلّ على قدرته على التغيير والتحسين.

وقد ذكرت هذه القصّة لتعليمنا حقيقة وجودنا، ولتسلية النّبيّ ﷺ عمّا كان يلاقيه من الإنكار. فهي تبيّن أنّ المعصية جزء من طبيعة البشر، وأنّهم رغم ما أكرمهم الله به قد لا يمتثلون دائمًا للأوامر الإلهية.

المعنى العام

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾